تمثلات الآخر في الرواية الجزائرية ذات التعبير الفرنسي (الأرض والدم) و(ريح السموم) نموذجا

د/سليـــم بتــقــه
كلية الآداب واللغات
جامعة بسكرة

الملخّص:

تيمة الآخر في الرواية العربية عموما والجزائرية على الخصوص ليست مجرد موضوع روائي، بل هي إشكالية حضارية وجد فيها الروائيون مادة غنية للطرح، حيث اختلفت تجاربهم الروائية حسب موقفهم من موضوع الآخر، وحسب زاوية النظر. فالرؤية التي تنطلق من الوعي الحضاري، هي رؤية تقوم على محاولة الفهم وزيادة وتيرة الأسئلة. وهي الرؤية الأكثر حضورا في الرواية الجزائرية. وإذا كانت الروايات الجزائرية التي تناولت الآخر جاءت مأسورة في الآخر (الرجل)، فإن النموذجين محل الدراسة (الأرض والدم) لمولود فرعون و(ريح السموم) لعلي عبيد سنركز فيهما على الآخر (المرأة الفرنسية) رؤية تحاول أن تحدد العلاقة مع الأنا (الرجل العربي) وتطرح نمط التعامل.

Abstract:

The theme of another in Arabic novel in general and the Algerian novel in particular is not merely a matter of fiction, but a cultural problem, which novelists have found such rich material to discuss their views .The vision based on the cultural consciousness is a vision that tries to understand and increase the pace of questions, and that is our common story in Algeria. If the Algerian novels that have covered the subject of the other have put emphasis on man,we try to concentrate on the other is a woman, a vision that seeks to sort out the type of relationship between me and the another.

البداية:

« De notre naissance à notre mort, nous sommes un cortège d'autres qui sont reliés par un fil tenu. »
Jean Cocteau.

يمكن أن نؤرخ للموجة الجديدة من علاقة الشرق بالغرب منذ اللحظة التي دقت فيها مدافع *"نابليون"* أهرامات مصر سنة (1798)، معلنة بداية مرحلة جديدة من التاريخ العربي الحديث. وكان وعــي (الأنــا) (القوميــة) بمــدى تقدم (الآخــر) الغربي وتفوقه بمثابة المرآة التــي عكست مدى تخلفها، وحقيقة الهوة التي تفصلها عن الركب الحضاري العالمي، مما ولد لديها الرغبة في اللحاق بهذا الركب وعدم التخلف عنه، بعد أن حَددت طبيعة العلاقة المتوترة بين طرفين؛ أولهما متقدم منتصر صاعد، وثانيهما متخلف منهزم هابط.وظل السؤال الجوهري هو: لماذا تقدم (الآخر) وتأخرت (الأنا) القومية؟ منذ تلك اللحظة أضحت أولويات الفكر العربي هي موضوع العلاقة بين (الأنا) و(الآخر) وما انطوت عليه من استجابات لم تخل من التذبذب بين الرفض والقبول، قبول المتغيرات العلمية والاجتماعية، بحثا عن مشروع نهضوي، ورفض تلك التي تسعى إلى تشويه الأسس العقائدية والأخلاقية للذات العربية الإسلامية.وبعد أن رفع (الآخر) الغربي شعار "الاحتلال طريق الحضارة" ووظف كل الإمكانات والمعارف من أجل تحقيق أهدافه التوسعية، جاءت حصيلة سنوات من الاستعمار سلبية تماما أجهضت معها المشاريع النهضوية بجميــع جوانبها، بسبــب مــا واجهته الأمــة العربيــة من عنف الحضارة الغربية، وأصبحت هذه العلاقة موضع تساؤلات عن طبيعتها، وهل هي علاقة صراع وصدام؟ وكيف ينظر (الآخر) إلينا؟

يرى *عبد الله إبراهيم* أن الحروب الصليبية قد غذت الخيال الغربي بفاعلية تعصب ثقافي ديني ضد الشرق الإسلامي، ووجدت تجليات ذلك المخيال في مرويات شعبية غربية جعلت من العربي الإسلامي كائنا قاسيا منحرفا كافرا.[1] وما يؤكد استمرار هذه النظرة تجاه العربي، هو الزعم في امتلاك كل الحق ليس فقط في توصيف هذا العربي، وإنما في إعطاء القيمة له.من المفكرين الغربيين الذي تناولوا مسألة العلاقة بين الشرق والغرب على أنها علاقة صراع المفكر الأمريكي *"هنتنغتون"*في نظريته صدام الحضارت وهو عبارة عن مقال نشره في مجلة العلاقات الخارجيــــة سنة (1993)

وأثار جدلا كبيرا، ثم قام بتوسيع مقالته إلى كتاب صدر سنة (1996) بعنوان "صراع الحضارات وإعادة صياغة النظام العالمي" (The clash of civilizations and remaking of world order) وفيه تناول مفهوم الحضارات، العلاقة بين القوةوالثقافة، ميزان القوى المتغيرة بين الحضارات، الصراعات التي تولدها عالمية الغرب، مستقبل الغرب وحضارات العالم. وعن مفهوم الصراع يؤكد أن المحور المركزي في السياسات العالمية سيكون الصراع بين الغرب المسيحي وبين الحضارة الإسلامية الرافضة لقيمه خصوصا بعد انتهاء الحرب الباردة وانهيار الاتحاد السوفيياتي.(2)غير أن *"هنتجتون"(Samuel Phillips Huntington)*لم يكن الوحيد الذي تعرض لهذه القضية فالمكتبات الغربية مليئة بالدراسات التي تعكس في مضامينها وعناوينها هذه العلاقة، وهي تنطلي في معظمها على نوعين من الرؤى لدى المفكرين الغربيين؛ رؤية تنتصر للسياسة التوسعية والهيمنة العسكرية لبلدانهم المتفوقة في مجال التسلح والمعرفة، ورؤية تقاوم هذه السياسة وتدعو إلى تبني سياسة أساسها العدل والسلام ونبذ الكراهية.يمثل *"يوشيهيرو فرنسيس فوكوياما" (Yoshihiro Francis Fukuyama)* (1952) الياباني الأصل والأمريكي الجنسية أصحاب الرؤية الأولى الداعمة للسياسة الأمريكية القائمة على مبدأ القوة وفرض السيطرة والهيمنة تحت ذرائع مختلفة، ففي مقالته المطولة التي نشرها سنة (1989) في دورية "المصلحة الوطنيـــــــة"Interest national) (تحت عنوان"نهاية التاريخ" (The end of history) يعتقد أن نهاية تاريخ الاضطهاد والنظم الشمولية قد ولى وانتهى إلى غير رجعة مع انتهاء الحرب الباردة وهدم سور "برلين"، لتحل محله "الليبرالية" وقيم الديمقراطية الغربية. هذا التاريخ لا يمكنه أن يخرج عن الإطار الذي حدد له وهو بطبيعة الحال الإطار الرأسمالي الأمريكي، وأن الهوية التي يقصدها هي الهوية الأمريكية التي سوف تفرض على سكان الأرض، ويستشهد على ما ذهب إليه من أن "الماركسية" التي تهاوت بعد انهيار المعسكر الشرقي، ولم يبق لها وجود حتى في منبتها حيث يقول: "يخبرنا المهاجرون القادمون من الاتحاد السوفيتي أنه في هذا البلد لم يبق أحد عمليا على إيمان حقيقي بالماركسية الليلينية".(3)نشر *"فوكوياما"* نظريته المثيرة للجدل في كتاب أصدره عام (1992) تحت عنوان "نهاية العالم والإنسان الأخير" (The end of world and the last man) أما أصحاب الرؤية الثانية الذين تمردوا على سياسة بلدانهم منتقدين توجهها الاستعماري الساعي إلى تكريس الأحادية القطبية انطلاقا من منطق الغلبة

والهيمنة فيمثلهم"تشومسكي"(1928) (NoamAvram Chomsky) المفكر الأمريكي اليهودي الأصل الذي يسخر فيه من بلده أمريكا وشريكتها بريطانيا اللتين تنزعان إلى القوة العسكرية دون مسوغات أخلاقية في مؤلفه (The new militaryhumansim) (النزعة الإنسانية العسكرية الجديدة) حيث علق فيه على رئيس الوزراء البريطاني السابق *"طوني بلير"* حينما قال "أنه علينا فعل أي شيء لوقف وحشية الطغاة" قائلا: "افترض أنك رأيت جريمة تحدث في الشارع وشعرت أنه لا يمكنك الوقوف مكتوف اليدين فتناولت بندقية هجومية وقتلت كل من له علاقة بالأمر المجرم والضحية والعابرين أفيكون علينا أن نفهم فعلتك بأنها هي الاستجابة العقلانية والأخلاقية بحسب مبدأ *بلير*؟".(4)

في هذا الكتاب تحدث خصوصا عن حرب "كوسوفو"، وحروب أخرى كما تحدث عن "إسرائيل" و"أمريكا" ورفضهما لبند الإعلان العالمي لحقوق الإنسان وعن حصار العراق. والكتاب يقوم أيضا على فكرة مفادها أن الولايات المتحدة الأمريكية حين تلاحق أو تطارد أو تحاصر بعض القادة المعارضين لسياساتها، فإنها لا تكون مدفوعة بنزعة إنسانية كما تدعي، ولكن دافعها إلى ذلك هو نزعة انتقامية من أجل إجبارهم على أن يقولوا: "ياعمسام"(5)وهي في ذلك تسعى إلى عولمة العالم ونهب ثرواته.

هذا عن علاقة (الأنا) مع (الآخر) في الفكر الغربي. فماذا عن تجلياتها في أدبنا العربي الحديث؟

الكتابة عن الآخر في التجارب الروائية العربية:لنبحث عن هذه المسألة في مضامين الرواية العربية خاصة إذا علمنا وأن "الأدب يظل آخر المهزومين في قضايا الصراع حين يقع، بل يتحول إلى سلاح جديد عندما تسقط الدولة عسكريا". وأن الرواية"أكثر أشكال الفن الأدبي تصويرا للمراحل التاريخية الإنسانية وللتطورات الأخلاقية والفكرية".(6)لقد تعرض الأدباء العرب لمسألة العلاقة بين (الأنا) و(الآخر) تشهد على ذلك إبداعاتهم التي عكست هذا الصراع بكل أبعاده وصوروه تصويرا شاملا، إلا أن زوايا الرؤية لديهم كانت مختلفة، حيث ألف *طه حسين* روايته (أديب) يروي فيها عن هذا الصعيدي الذي انبهر بثقافة الغرب وحضارته فيقبل على تطليق زوجته ليتسنى له الحصول على منحة للدراسة بالخارج، وحين يصل إلى "باريس" يعيش حياة بوهيمية ويتعرف على *"إلين"* التي يكتشف خيانتها ويصاب *أديب* بمرض ويكتشف حقيقة هذه الحضارة ويقرر العودة.أما *توفيق الحكيم* فقد ألف (عصفور من الشرق) حيث عرض للعلاقة بين الشرق والغرب، وجعلها

منطلقا رئيسيا لتلك النزعة الإنسانية، والتي نظر الكاتب إلى أبعادها من خلال بطل الرواية *محسن* الذي يجسد الحياة الشرقية، وتمثل *"سوزي"* التي تعرف عليها وأحبها الوجه المشرق لحضارة الغرب. ولكن *محسن* يصطدم بهذا الوجه الجميل للحضارة الغربية، حيث تتبدى له مأساة الإنسان مع المادة فيكون الحل بالبحث عن حل للأزمة الروحية التي يتخبط فيها الغرب من خلال الأديان والآداب والموسيقى وسائر الفنون. إضافة هذين النموذجين نجد أيضا الحي اللاتيني لسهيل إدريس، وأبو جهل الدهاس لعمر أبو سالم في، وقنديل أم هاشم ليحيى حقي، والسنيورة لعصام خوفير...ورغم ما قدمته الرواية العربية المشرقية في هذه المسألة، غير أن الرواية المغاربية تكاد تتسم بخصوصيات في طرحها لهذه القضية، وهو الأمر الذي دفع بالدكتور *مصطفىعبد الغني* في مؤلفه (قضايا الرواية العربية) إلى حصر نماذجه في الرواية المغربية، لأن المغربي –والمغاربي عموما– "لم يكن ليستطيع أن يفلت... من أسر التجربة الغربية، وهو دائب البحث عن الهوية العربية وسط قضايا لا تنتهي".(7)

تقابلات الكتابة عن الآخر(العربي) في الرواية الكولونيالية: لقد ارتبط سياق التمدن والتحديث بسياق الاحتلال والانتداب من خلال اللقاء المعقد بين الشرق والغرب في منعرج تاريخي دموي، انسحبت آثاره العميقة على رؤية العربي إلى المدينة، بما هي مرآة للحداثة والغرب على السواء، وفي ضوء هذا لم تكن المدن الجزائرية –إبان الاحتلال– أمكنة للاقتلاع الحضاري فحسب، بل مراكز لسلطة الغزاة الأجانب، الذين يمارسون الحربعلى الأهالي، إذ يغتصبون أراضيهم وينهبون خيراتهم، يسرحون ذاكرتهم، يشوهون هويتهم، يخربون ديارهم ويصادرون حقهم في الوجود بالتعذيب والقهر والقتل.(8)هكذا أصبحت الأرض المغتصبة معتقلا كبيرا، وأمست المدينة بمثابة الزنزانة الضيقة المظلمة، التي تختنق فيها أنفاس شعب مقهور ثقافيا واجتماعيا وسياسيا واقتصاديا ودينيا يقاوم حالة الدمار الشامل، شعب لم يجد مع تاريخ الإنسان في هذ الأرض الطبيعة الخالدة ولذلك اتخذت المدينة صورة المكان السلبي، العدائي، المستلب، الغريب، في مقابل الأمكنة الطبيعية البديلة، التي يسترد فيها الجزائري ذاته وهويته ويحقق من خلاله حضوره وفعله الثوري، ويشعر بالألفة التوازن، ويلمس غيرها امتداده التاريخي العريق في حضارة الأجـداد والأمجـاد. تتلخص هذه الأمكنة البديلة في الأرياف، التي تتفاوت في حضورها، وما تحمله من قيم وطنية وثورية.(9) ذلـك الاستلاب والقهـر عكسته

الروايـــة الكولوينـــالية بـــدءا مـــن التيـــار الجزائري (L'Algerianisme) مطلع القرن العشرين مع *"لويس برتران"(Louis Bertrand)"لوكوك" (Le Coq)* و*"راندو" (Randau)* الذين شكلوا جيلا من الروائيين، والذين بدأوا يبحثون عن خصوصيتهم التاريخية والمحلية من خلال إبراز الجزائر "أرض الميعاد"، و"إرث الأجداد والرومان".

و من بين أهم من مثل هذا التيار *"روبير روندو"* الذي ركز جل كتاباته حول تعظيم المعمر (Le Colon)، ومستصلح الأرض مثل رواية (المعمرون) سنة (1917)، وفيها اتخذ من المعمر بطلا إشكاليا إيجابيا، والأرض محور واقع المعمر وكأنه ينتمي إلى جنس بشري خالص كامل ومتكامل.[(10)]ترادف هذا تاريخيا مع قوة وتركز السياسة الاستيطانية. هذه السياسة بدأت تعرف في الثلاثينيات هزات وأزمات خطيرة انعكست في الإبداع الروائي، وبالتالي التمهيد لظهور تيار جديد وهو تيار "مدرسة الجزائر" (L'Ecole d'Alger) هذا التيار ظهر سنة (1935)، حيث اتخذ من النزعة الإنسانية والدوران داخل أطروحة الحضارة المتوسطية مجالا جديدا للتعبير، بدأت جل الأعمال ترتكز على البحر وتحت الشمس والعيش في المدن الساحلية[(12)]. وقد تجلت هذه النزعة خاصة لدى *"البير كامي"(Albert Camus)* من خلال مؤلفه (أعراس) (Noces)، وفيه يصف المعمرين الذين كانوا يغدون إلى السباحة في الشواطئ، فهؤلاء الشبان على شواطئ البحر تذكره بالحركات الساحرة التي كان يؤديها الرياضيون في "ديلوس" (Delos).[(13)] إن هدف هؤلاء المثقفين من أمثال *"كامي"* هو الدفاع عن القيم المستمدة من التراث اليوناني ولا شك أن موضوع الشمس والبحر يرمز إلى هذه القيم اليونانية، وهو أمر ملحوظ في جميع كتابات *"كامي"*. ومن هنا ندرك المقصود من عنوان المقال الأول من تحقيقه حول منطقة القبائل فقد ظهرت تلك المنطقة كأنها "بلاد اليونان في أسمال بالية La Grèce en haillons".كما أن القارئ قد لاحظ أن كلمة *"ميرسو" (Murseault)* وهو بطل رواية (الغريب) تركيب مزجي منمير (mer)أي بحر وسو (Seault)وهو المقطع الأول من كلمة (soleil) أي الشمس بالفرنسية، وهو الاسم المستعار الذي كان (Jean Merseault) يوقع به في جريدة "المساء الجمهوري" (Le soir republicain).

وبالنظر إلى الأدبيات السياسية و"الأيديولوجية" الاستعمارية فقد ثبت أنها تنظر إلى الفئات التي لا تدخل في النسق الاستعماري نظرة عنصرية انعكست على الرواية، فلا نكاد نعثر على الأهالي أو العرب كما كان يحلو لأمثال *"كامي" (Camus)* أن يسمونهم،

ففي مؤلفه (الغريب) (l'étranger) (1939) يظهر العربي ضحية غريزة العدوان الذي يريد كل أوروبي أن يتخلص منها ليضع حدا للمجابهة الكريهة بينه وبين العربي، حيث يقوم بطل الرواية *"ميرسو"* *(Murseault)* بإفراغ خمس رصاصات على شخص عربي مجهول. ويذهب *"أحمد طالب الإبراهيمي"* إلى القول بأن بطل الرواية *"ميرسو"* يمثل في الحقيقة *"كامي"* الذي بقتله في روايته العربي، قد حقق في اللاشعور حلما كان يراود كل المستوطنين الفرنسيين الذين يحبون الجزائر، ولكنهم لا يتصورونها إلا مجردة من أهاليها العرب.[14] أما في رواية (الطاعون) (La Peste) لـ*"كامي"* فإن الكاتب كان يصف مدينة وهران وكأنها مدينة أشباح، فليس هناك ذكر لجزائري واحد، حيث يرى بأنها مدينة كغيرها من المدن، وكل ما في الأمر أنها مركز ولاية فرنسية تقع في ساحل الجزائر.

وفي كتابه (المنفى والمملكة) (l'éxil et le royaume) توجد قصة عنونها *"كامي"* بـ"الضيف" (l'hôte) جاء في مشهد من مشاهدها ذكر الجزائر، وهو مشهد المعلم الفرنسي الذي كلفه رجال الدرك باقتياد أحد الجزائريين إلى السجن.إذن الحقيقة التي يمكن التأكد منها من خلال مؤلفات *"كامي"* خاصة منها المذكورة هو أن شخصية الجزائري منفية في داخل ذاتها، غائمة الملامح، مجهولة الاسم والرسم، حتى لتبدو أدوارها المرسومة لها ككائنات وهمية في وطنها وعقر دارها، وفي حركتها المحدودة كالأشياء الصامتة، وإطار الصورة لا يتسع إلا لمليون مستوطن فرنسي، ولا تمنح التسعة ملايين جزائري أية مساحة.

في تحليله للرواية المغاربية لاحظ *"عبد الكريم الخطيبي"* أنه منذ سنوات بدت الرواية "مريضة بالسياسة" (malade de politique)، فبالنسبة "للتيار الجزائري" فإن أصحابه يقدمون دفعة واحدة كمؤسسة عسكرية هدفها هو الدفاع عن مفهومهم للسياسة الاستعمارية وتزيين صورتها.[15]وإذا كانت هذه صورة العربي في المدينة، فإن صورة الأهالي في الريف (فلاحون زراعيون، خماسون..)، في الرواية الكولونيالية قد تم تجاهلها تجاهلا مطلقا، وفي هذا السياق يقول *"البير ميمي"* *(Albert Memmi)*الذي يلخص نظرة (الأنا) الفرنسية لـ(الآخر) الجزائري: "المستعمَر الذي يقود سيارة يرفض المستعمِر الاعتياد على رؤيته، وينكر عنه كل طبيعته... أما إذا أصابه حادث حتى ولوكان خطيرا، فذلك ما يثير تقريبا السخرية والضحك..."[16]وبالتالي فإن الرواية الفرنسية ركزت على تقديم صورة المستعمر في المدينة مكان (الآخر) الفرنسي، أو

المناطق الساحلية باعتبارها مجال تركز السياسة الاستيطانية بكل ما تحمله من استغلال عنصرية وتهميش تجاه الأهالي، أما الأرياف مكان (الأنا) التــي تعيش المظالــم، والفقر، والبؤس فقد تــم تجاهلها، حتى وإن تم التطرق إليها، فإنها لا تعدو أن تكون ديكورا ملائما وكافيــا لإشباع شهيــة (الآخر) من الغرائبيــة، والأحلام وتقديم الانطباع بأن الحياة في المستعمر تتميز بالسلم والهدوء بعيدة عن كل مظاهر الاضطراب والفوضى. ونظرا للظروف الطبيعية القاسية التي ميزت بلاد القبائل، فإنها وقفت أمام نية الاستعمار في الاستحواذ على الأراضي الجبلية والاستيطان بها. وبالعودة إلى أعمال *فرعون ومعمري* والتي اتخذت من جبال القبائل فضاءات لأحــداث رواياتهم، فإننا على العموم لا نجد فرنسيا في تلك القرى باستثناء معلم الفرنسية، بعض الآباء البيض (pères blancs) أو"الجندرمة" (الدرك). بالمقابل نجدالكثرة من الفرنسيين متواجدة في قسنطينة عنابة، البرواقية، تلمسان ...إلخلقد بنى الأوروبي في الجزائر عالمه مقابل العالم الذي وجده حين وطأت قدماه الجزائر وبالتالي فقد كانت مدينة الفرنسيين بمحاذاة المدينة القديمة، حيث عاش العرب بجانب الفرنسيين ولكن بدون تعايش حقيقي.(17) تعرف الأحياء الأوروبية في المدينة ومنازلها المنخفضة، بواجهاتها التي تكون غالبا مُبقّعة كتب *"جون كوهين" (John Cohen)*عن الفرق بين المدن التي يسكنها الأوروبيون، وبين القرى التي يقطنها الأهالي: "بين الجزائر وفرنسا هناك ألف كيلومتر بين المدينة الأوروبية والمدينة التي بها الأهالي هناك مسافة "بينجمية" (interstellaire) من "الكولونيالية". (يقصد مسافة طويلة يستحيل معها التقارب بحكم الممارسة الاستعمارية التي تعتمد أساسا على الرفض والدونية والميز والقهر ...) ويضيف *"كوهين":* للعرب أحياؤهم، مقاهيهم، وسينماهم، ولكن الأوروبيين لا يذهبون إليها أبدا فالتمييز من طرف واحــد، فــالدوني (l'inferieur) يجــب أن يذهب إلى من هو أعلى منه (superieur)، ولكن هذا الأخير لا يقابل ذلك بشيء من حسن المعاملة والتأدب."(18)

هذا وقد كانت الهجرة إحدى النتائج الواضحة للسيطرة الاستعمارية، حيث دفعت الجزائري خارج محيطها لأسباب اقتصادية، والمناطق الأكثر حرمانا (déshérités) هي التي أوفدت العدد الأكبر من المهاجرين، لذا فإن منطقة القبائل هي المنطقة التي تعرضت على الخصوص لهذه الظاهرة. بالنسبة للذين لا يملكون أراضي فلاحية أولا يجدون عملا، يرون في الهجرة الوسيلة الوحيدة لربــح بعض الدراهم، حيث ينزحون إلى المــدن بعد

هجر قراهم، أو إلى فرنسا للبحث عن الخبز والاعتبار الذي لا يجدونه في بلادهم، فهم يهربون من حياة أوحالة اقتصادية مزرية ونظام متسلط، خانق، يجبرهم على حياة البؤس، ويبعدهم عن الحياة السياسية في بلادهم الأصلية.تظهر فرنسا لدى هؤلاء العمال البؤساء من بعيد كعالم الفردوس، حتى العلاقات مع الفرنسيين ستكون مختلفة عن هؤلاء المتواجدين في الجزائر. لقد ساهمت هذه النظرة في الترويج لصورة فرنسا، حيث صورت الحالة هناك بأنها مغرية، فالشعب الفرنسي يمد يده بكل حب للشعب الجزائري المُستغَل، مُجسدة بذلك حقيقة التعاون بين "البرولتياريين"، ولكن بمجرد وصولهم إلى هناك تتلاشى كل تلك الأوهام من خلال الاستقبال الذي لا يستجيب دائما للآمال التي تشبعوا بها.[19]

تمثلات الآخر في الرواية الجزائرية الناطقة بالفرنسية:"أليس من المدهش أن تكون إحدى هذه الشخصيات باريسية الأصل؟ فعلا كيف نتصور أن فرنسية من باريس يمكنها أن تعيش حبيسة قرية إغيل نزمان".[20]رواية (الأرض والدم) (La terre et le sang) لـمولود فرعون التي كتبها سنة (1953) هي قصة شاب قروي من قرية إغيل نزمان يدعى *عامر* هاجر إلى شمال فرنسا للعمل في المناجم. هناك يلتحق بالجالية القبائلية وبابن عمه، هذا الأخير وقع في حب صاحبة النزل الذي يقيم فيه. في إحدى الأيام يقع حادث خطير في قاع المنجم، لقد دهست إحدى عربات الفحم ابن عم *عامر* الذي كان يغط في نومه. فهل كان حادثا عابرا أم جريمة اغتيال قام بها الزوج الغيور؟ ترك *عامر* المنجم بعد هذه الحادثة دون أن يأخذ بتأثر ابن عمه. وبعد سنوات وقع في حب *"ماري"* وهي البنت غير الشرعية لصاحبة النزل عشيقة ابن عمه، حيث تزوجها لمداراة خطئه. يقرران العودة إلى البلاد أي إلى قرية إيغيل نزمان لبناء عش لهما في ذرى جبال القبائل. في القرية اجتمع شمل الأسرة حيث وجد أمه *كمومة* في انتظاره، ولكنها وحيدة لقد فقدت زوجها بعد سفر ابنها إلى فرنسا بفترة قصيرة، *"ماري"* التي وجدت عالما غريبا، بدأت تنسج العلاقات مع نساء القرية وتحاول فهم ما يدور بينهم، أما *عامر* فبدأ يجدد علاقته مع أهل القرية خاصة وأن أقرباء ابن عمه المقتول لم ينسوا موته، فهل يأخذون بثأرهم منه؟ خاصة *سليمان* الذي عزم في البداية على الأخذ بثأر عمه، يكتشف أن زوجته *شابحة* عاقر هذه الأخيرة تقع في حب *عامر*، وبينما كان العشيقان يتحدثان على انفراد، يفاجئهما *سليمان* زوج *شابحة*. وذات يوم وبالقرب من الورشة التي يقوم فيها *سليمان* بقلع

الحجر، ينفجر لغم يقتل *عامرا*...اهتزت القرية البائسة لهذا الحدث ورده الناس إلى المكتوب. (الأرض والدم) عنوان يشير إلى تقديس الطبقة الكادحة للأرض والذي يعد بالنسبة إليهم عنصرا من عناصر وجودها، هذه الملكية المشتركة للعائلة التي ينبغي أن تحافظ عليها الأجيال المتعاقبة، لذلك فإن الزوجين يجب أن يكونا قادرين على الإنجاب حتى يمكن توريثها وهنا تبرز علاقتها[21] الجدلية بين الأرض الإنسان.

يشرح *فرعون* كيف إنه يوجد تفاهم ضمني بموجبه يعاقب كل من يخالف قانون الجماعة ويتمثل في "الوئام بين الإنسان والأرض" (concorde entre l'homme et la terre) وهذا ما حصل لـ*عامر* فالأرض بصخورها وترابها المنهال عليه في المقلع هي التي قتلت عشيق *شابحة*. فالدم هو دم العائلة، وأيضا دم الثأر. ترجمت هذه الرواية إلى الروسية والألمانية والبولندية، وهي بدون شك أكثر رواياته الثلاثة كثافة (ابن الفقير، الأرض والدم، والدروب الوعرة). عالجت هذه الرواية الشرف لمختلف العائلات، كل واحد في زاوية من الحي يدافع عن اسمه، عن أجداده، عن تاريخه وهذا ما يهيج الصراعات، فليس هناك في القرية قرابة واحدة موحدة. وباعتبار *مولود فرعون* قرويا، فهو لا يقل دراية عن شؤون القرية، لذلك استطاع بامتياز أن يكشف العادات والتقاليد القبائلية، كما استطاع أن يصور النظام العقاري، ونمط الإنتاج الزراعي الخاص بأهالي المنطقة تصويرا دقيقا يذكر بـ"*جوموكينياط*" *(J.Kiniata)* حين قام بدراسة قبيلة (جيكويو) مستعينا في ذلك بمناهج علم الاجتماع الحضري "الإنجلوسكسوني"، كما عرض *فرعون* في روايته لمشاكل المهاجرين حين يعودون إلى بلادهم، فعادة ما يعاملون كأنهم وافدون أو أغنياء أو خونة.الرواية كما يصرح *بذلك مولود فرعون* ليست كلها من نسج خياله، فبعض أحداثها مستمدة من الواقع، ففي رسالة بعث بها إلى السيدة "*لاندي بينوس*" بتاريخ (1955/02/04) جاء فيها: "فيما يخص رواية (الأرض والدم) فهي كلها من نسج الخيال وليس فيها إلا شيء واحد مستمد من الواقع، فأنا أعرف سيدة وفدت إلينا من فرنسا في العشرينيات، ولا تزال عندنا، ولكنها فقدت زوجها منذ مدة طويلة، ومن هنا نشأت عندي فكرة كتابة هذه الرواية".[22] يعود *عامر أوقاسي* في رواية (الأرض والدم) إلى قرية إيغيل نزمان والتي تعني "ربوة ماضي الزمان" (يذكر الاسم بالربوة المنسية) لـ*مولود معمري*، هذه القرية البائسة مثلها مثل كل القرى المتواجدة بأعالي منطقة القبائل، بعد غياب طويل ومعه غنيمة حرب (butin de guerre) "*ماري*" *(Marie)* الشابة

الفرنسية التي ستذوب في الحياة ولكنها لن تكون حصان طروادة (cheval de troie). فكيف سيستقبل أهالي القرية هذا الزوج القادم من عالم يجهلون الكثير عنه؟ وكيف سينظرون (للآخر) *"ماري"* الفرنسية ولزواج *عامر*؟ هل هو خيانة؟ خيانة الأرض والدم؟ هل تستطيع هذه الثقافة الدخلية (الفرنسية) أن تزعزع كيان الثقافة التقليدية الصامدة؟ هل بإمكان (الآخر) *"ماري"* ابنة الحضارة والمدنية أن تعيش وتتصهر داخل هذا المجتمع المصغر المنغلق على نفسه؟ داخل هذه القرية البائسة؟إذا كان الطابع العروقي (ethnique) للرواية مرتكزا أساسيا فيها، فإن علاقة (الأنا) بـــ(الآخر) الفرنسي اكتسبت أهمية، ذلك أن *مولود فرعون* حاول من خلال هذه العلاقة أن يقف على القضايا الإنسانية في ذلك الوقت.لعل علاقة (الأنا) العربي بـــ(الآخر) الفرنسي تحمل شيئا من الالتباس، فـــ(الآخر) القادم من الغرب الذي يملك العلم والتكنولوجيا والهيمنة العسكرية يمكن أن يصدر ثقافته لـــ(الأنا) العربي بأية وسيلة بما في ذلك علب السردين.(الأنا) يحرص دائما على التذكير بأن جذوره ضاربة في القدم، وأن له ثقافته التقليدية، لذلك فهو غير قابل لاستيراد ثقافة (الآخر) ولن يستهلكها حتى ولو وضعوها عند قدميه أو بين يديه. لذلك فإن وصول (الآخر) *"ماري"* إلى القرية وقت الظهيرة من فصل الربيع، شد فضول الأهالي وأثارهم، لأن مثل هذه الأحداث في القرية تهزها وتحدث فيها نوعا من الاضطراب بعد الركود الذي عهدته قبل ذلك."أما الأطفال فأول ما قاموا به هو الهرولة نحو الطاكسي الغريب والإحاطة به، ثم رافقوا الزوجين بلا كلفة".[23]وبخلاف ما يقال من أن (الآخر) ينظر لـــ (الأنا) نظرة متعالية، فإن النظرة الاستعلائية انبثقت عن رجال القرية الذين كانوا مستائين من قدوم هذه "الثاروميث" أي "الرومية".

"كانت السيدة الجميلة تبتسم لهم ابتسامة ملكة تتنازل لمن هو أدنى منها، قالت لمرافقها بالمرة:"ها هم القبائل!"[24]"بدا الرجال متضايقين... وهم يرون هذه الثاروميث بينهم، فكان الذين يلتقون بالزوجين ينسحبون وهم يخفون سخرية مبطنة تحت جفونهم ... وبزاوية من شفاههم مطة استهجان غير مرئية".[25] إذا كان إصرار *عامر* على العودة إلى القرية حتى يتحرر من ماضيه، بل إنه يريد لهذا الماضي أن يسقط عن كاهله ويضع في النسيان، فإن *"ماري"* قد تركت الفردوس الأرضي باريس المدينة الحلم ورمت بها الأقدار.

"فها هي تصل إلى الزقاق الكبير في القرية، حيث المزبلة العمومية، القاذورات المتراكمة، هذا الزقاق الذي يكشف عن بؤس القرية، حيث المنظر القبيح والضيق، المليء

بالحفر والوحل، لقــد أحس *عامــر* بالحــرج ليس لأنه وضع زوجته أمام هذا الواقع المر، ولكن لأن كل تلك الأشياء من أكواخ قذرة، وجرذان متداعية، وأكوام النجاسات تعاتبه لأنه كشف حالتها لهذه المرأة الأجنبية".[26]لم يكن منزل *كمومة* أم *عامر* قد تغير بعد ذهابه إلى فرنسا: "إنه الرتاج الخشبي المنخور ليس له إلا مصراعا واحدا... تبدو الساحة صغيرة تتراكم فيها الأوساخ إنها أقرب للإسطبل منها للساحة"[27].ورغم كل هذا فإن *عامرا* يبدو أنه أقنع *"ماري"* بضرورة التعود عليه.أول مشكلة ستصادفها *"ماري"* هو كيف تتفاهم مع كنتها *كمومة* وبقية نسوة القرية؟ لقد كانت مرتبكة خاصة مع التقاليد التي بدأت تكتشفها منذ الوهلة الأولى.

"عليــك بالصبــر، هكــذا هــي التقاليد عندنا ليــس مــن عاداتنــا التعريف بالشخص، نسلم على الجميع دون تمييز".[28]هذا هو المجتمع الريفي، مجتمع تقليدي جامد، يضع العرف قاعدة للسلوك، ومعيارا للنظرة إلى الأمور، الإنسان كائن تتحكم فيه التقاليد وتقيد كل حركة أو انطلاقة لديه نحو المستقبل. لقد حاول *عامر* أن يخفف من ارتباك زوجته، لا يبدو من الوهلة الأولى أن مشكلتها ليست مع الرجال، لقد كان لقاؤها بهم في السوق، رغم أنهم كانوا يتحاشون الحديث إليها مباشرة، وكانو يفضلون أن يخاطبوا *عامرا*، ولم تنس أن تؤدي زيارة للحاكم (الفرنسي)، مع ذلك لم تشعر *"ماري"* بالارتياح فقد كانت تبدو مع *عامر* زوجين مثيرين للسخرية، لأنه فقدت معه فرنسيتها، وفقد معها قبائليته أحست بذلك من خلال برودة استقبال الحاكم لهما، فقد كان مستاء من هذا الزواج. لم يكن الحاكم الوحيد الذي استاء لهذا الزواج غير المتكافئ في نظره، فقد كان مدفوعا بنظرة التعالي، لــ(الأنا) الدونية، أما سكان القرية، فإن موقفهم من هذا الزواج نابع من رفض (الآخر) القادم من عالم مختلف، عالم لا تستطيع (الأنا) التملص من قبضة الفرنسية ولا يستطيع أن يفرض عليها ثقافته وعاداته وتقاليده، هذا ما توارد إليهم من أخبار العالم الآخر.

ظاهرة الزواج بالأجنبيات فيما بعد (1925) تاريخ قدوم *عامر* مع *"ماري"*، كانت محل نقاشات خاصة مسألة الاستلاب (Aliénation) التي تتمثل في الوضعية التي ينال فيها القهر والتسلط والعبودية من جوهر الإنسان، وهي الحالة التي تتعرض فيها إرادة الإنسان أو عقله أو نفسه للاغتصاب والقهر، الاعتداء والتشويه. فالإنسان "كينونة جوهرها العقل والحرية والعمل والانتماء وكل ما من شأنه أن يمس هذه الأبعاد الأساسية لجوهر الشخصية يدفع إلى حالة اغتراب واستلاب".[29] فقد كتب *أحمد رضا* حوحو حول هذه

الظاهرة متعرضا لها بالنقد ولإفرازاتها السلبية في (حمار الحكيم والزواج) كما تعرض لها برؤية ساخرة الشاعر *مفدي زكريا* :[30]

وبعـض تـزوج بالأجنبيـة | و قـال مثقفـة حضريـه
تراقصنـي وتراقـص هـذا | وذاك، وتعبـث عـن حسـن نيـه
وتختـال بالمينـي جـوب | دلالاً وتستعـرضالمغريات الخفيـه
وتتركـني، لا جنـاح عليهـا | و تذهـب للسهـرةالنرجسيـه
وتقضـي الليالـي خـارج | بيتـي وذلـك من نعـم المدنيـه
وإنولدت، لسـت أدري لمـن؟ | كفـى أنـه من بنـي البشريـه
أناديـهصـالح، عند الصبـاح | وأدعـوه موريـس عنـد العشيـه
وإن زلّ يومـا تنـاديه"بيـكو" | فأحسـب "بيكو" من "البكويـه"
وتدعـو مسـاعدنـا "مـون أراب" | فأهـوى العروبـة والعربيـه
وأنحر فـي نحرهـا غيرتـي | فتغـدو أنـا، ثمأصبـح هـي

فالزوج في نظر هؤلاء ضحية، حتى نسوة قرية إيغيل نزمان كذلك فهن "يرين بأن *عامرا* ضحية، إن الجارات متيقنات من أنه مغلوب على أمره لسبب أو لآخر وأنه لا جدوى من الانتكاف إلى الخلف، مادام الأمر على هذا النحو لتبتغي *كمومة* ود السيدة وتتعايش معها".[31]لم ترد *كمومة* أن تكون زوجة ابنها "رومية" كانت دائما تحلم بإحداهن من قرية إيغيل نزمان. "هناك من هن طيبات وجميلات ومن لا يرفضن والديهن مصاهرتها".[32]كانت تحلم أن تكون زوجة ابنها سيدة بيت كاملة لها كنة، ويكون لها أصهار لا ينقطعون عن زيارتها، ففي هذا مفخرة وأية مفخرة. لم تكن تتصور أن يقدم ابنها بعد طول غياب أن يصطحب معه "ثاروميث" إنها فضيحة في نظر رجال إيغيل نزمان. "ثاروميث" زوجة قبائلي! إنها في نظرهم حطب جهنم "ليس أحد منا من يأتي بهذه الحثالة".[33]إذن أمام كل هذا لم يكن من حيلة لـ"مدام" -كما يحلو لهم مناداتها- غير التفاهم مع *كمومة* والأخريات، ينبغي أن تدير أمورها إذا قبلت بالوضع الراهن ولم تتمرد عليه فهي تكتشف أن ظهورها بمظهر الضعيف يكسبها نوعا من القوة.

لقد بدأت "مدام" شيئا فشيئا تستلذ المعيشة في هذا المجتمع، وتتبادل الخبرة مع أولئك النسوة، وتشاركهم الحديث، مجتهدة لمعرفة ما يقولون، كانت تستعين على ذلك بالحركات والإيماءات المستملحة التي غالبا ما تنتهي بضحكات عالية. تغير حال "مدام" لم

تعد إذن تحس بالملل مثل أول مرة، لقد بدت سعيدة، إنها تستلذ حياة القرية وسط أولئك الفلاحات، وفي حضور تلك المناظر الطبيعية الريفية. لقد وجدت بلاد القبائل جميلة.

"الواقع أنه لم يخب أملها... كانت تنتظر أقل من هذا، كان يجب الذهاب بأي ثمن حياة الكلاب تلك، حياة الكلاب الفقيرة بباريس قد طالت كثيرا".[34] استطاعت "مدام" أن تعرف ما يدور من حديث النسوة، ترد عليهم وتشاركهم المزاح، لقد تعلمت اللهجة القبائلية، ولم تعد تتحدث بلغتها الفرنسية إلا حين تخاطب زوجها، وأصبحت شيئا فشيئا تحس بأنها امرأة مثل بقية نساء القرية، لا تخرج من بيتها، بالمقابل كانت زيارة النسوة لها لا تنقطع خاصة *شابحة* زوجة *سليمان* امرأة عاقر، و*حمامة* المرأة المترفة والتي على عكس *شابحة* امرأة ولود. كانت *"ماري"* تميل إلى *شابحة* وتكره *حمامة* لأنها حقودة وغيورة، ولكن هل كانت تدري عن علاقة زوجها *عامر* بـ*شابحة* خاصة بعد أن أشاعت *حمامة* الخبر؟ يبدو أن *"ماري"* كانت على علم بهذه العلاقة من خلال تصرفات *شابحة*، ولكنها كانت تغفر نزوات زوجها، كأية امرأة غربية، لأن الكاتب أراد أن يجعل من *"ماري"* زوجة عاقلة تحب زوجها وتعطف عليه، في المقابل تظهر *شابحة* في صورة الزوجة الخائنة التي تحاول أن تدافع عن نفسها وتدفع عنها التهمة."تعالوا جميعا لتستمعن... *شابحة أورمضان* عشيقة *عامر أوقاسي*، تريد أن تشوه امرأة شريفة وذلك لتغطي شمس بالغربال". [35]

"...كما ترين جيدا *عامر* عشيقي، لقد فاجؤونا مائة مرة بالجرم المشهود، أخرج ليلا تاركة *سليمان* –عمه– نائما بمفرده. ومن جهته يهمل مادام التي هي بشعة كما تعلمن فيقوم... بقندورته ونذهب ككلب وكلبة ونتسمر أمام بوابتكم أونلتقي نهارا بإيغيل نزمان". [36]

بهذه السخرية والتهكم كانت *شابحة* تجيب غريمتها *حمامة* حتى تبعد الشبهة عنها، غير أن الأمر لم يكن ليغيب عن *سليمان* الذي تأكد من خيانة زوجته *شابحة* وكانت حادثة المحجر، لقد مات *عامر* و*سليمان* تحت ركام الأحجار.

"ذاع الخبر بسرعة فائقة الكل يركض نحو الحجر، أصاب الذهول القرية."[37]"جلست مدام على كرسي، وأدارت ظهرها إلى الباب ووضعت يديها على رأسها بالقرب من رأس *عامر* وكانت تبكي بهدوء، ولكن دون انقطاع، وتعيش بأكملها لآلامها غير عابئة بالحضور".[38]غير أن *عامرا* لم يشأ أن يذهب عن هذه الدنيا ويترك "مدام" لقدرها دون أن يغرس في بطنها جنينا سيكون الوريث."فجأة أحست *كمومة* أن مدام تمسك يد *شابحة* لتضعها على بطنها حينذاك اختلجت. هممت لها: هل تحرك؟

– نعم، عندما دخلت *شابحة*.

– الحمد لله يا ابنتي سيكون لنا وريث."[39]

سيكون لــ*"ماري"* ألف ذريعة للبقاء في بلاد القبائل، في هذا المجتمع المنغلق، إن تيغزرانبحاجة إلى وريث يعتني بالبساتين يحافظ عليها، إنها الأرض، إنها الشرف وسبب الوجود والكينونة.لقدخالف *عامر* قانون "تاجماعت" فنال عقابه، كما نالت *شابحة* عقابها بحرمانها من الخلف.رواية (ريح السموم) (Le Simoun) لــ*علي عبيد* هي أولرواية بالفرنسية تصدر بمدينة الوادي تدور أحداثها في الخمسينات من القرن العشرين. *"كورين"* ممرضة بالمستشفى المدني بإحدى قرى الجنوب، وفي إحدى الليالي تستقبل مصلحة الاستعجالات شابا في حالة سيئة، أوصلته سيارة "جيب" تابعة للجيش الفرنسي، لقد دفعت إصابة هذا الشاب بالممرضة إلى تذكر زيارة المعلمين العادية بغرض الفحص، لقد كان هذا الشاب من بينهم، إن سعادتها لا توصف. بعد خروج*معراج* وهو اسم المعلم الشاب، توقف لمشاهدة بستان المستشفى، تقدمت منه *"كورين"* وسألته إن كان البستان أجمل من غابة النخيل التي كانت قد زارتها منذ عامين، وكان *معراج* المرافق بلباسه التقليدي.لم تستطع *"كورين"* أن تكتم مشاعرها تجاهه، إنها تحبه. يتعلق *معراج* بدوره بــ*"كورين"* لكنه لا يفصح عن هذا الشعور الذي تملكه إلا بعد أن يصفي حسابه مع *"راوول"* (Raoul) ورجاله.يزداد تعلق *"كورين"* بــ*معراج* بعد أن أكبرت فيه نبل قضيته التي يناضل من أجلها، كرد على عرض *"راوول"* لها بالانضمام إلى منظمة (O.A.S) . لقد أراد *"معراج"* أن تكون علاقتهما مثالا للتآخي بين الشعبين الفرنسي والجزائري، بين مسلمين ومسيحيين. تعود *"كورين"* بعد نهاية عقدها إلى فرنسا، وتركت *معراج* بالقرية. ينفد صبره خاصة بعد أن فقد صديقة الصبا *قمرة*، ثم أمه *مطيرة* بعدصراع مع المرض، حتى *صافية* التي كان يأمل في الزواج بها ظهرت بأنها أخته من الرضاع. يقرر اللحاق بــ*"كورين"*، غير أن اللحظات السعيدة، لحظات اللقاء من جديد، والمشاعر الصادقة لم تدم طويلا بسبب موجة الكراهية والتمييز العنصري، حيث يوجد نفسه يقاد إلى المطار ليعود إلى بلاد الأجداد، إنها العودة المثقلة بدون كراهية. الرواية تطرح بشكل رئيسي أزمتين حادتين؛ تتعلق الأولى بمسألة التواصل الفكري والعاطفي بين الشرق والغرب، والثانية تتعلق بالتمييز العنصري. في(ريح السموم) (Le Simoun) المعروفة الجنوب بــ "الشهيلي" وهي تلك الرياح الصيفية الحارة التي تهب من الجنوب. رواية تجمع بين

حرارة العواطف ودفئها، وبين المعاناة، منتجة بذلك مشهدا يمكن وصفه بالجهنمي (Apocalyptique)عمل تراجيدي استوحاه الكاتب من قصة حب تنشأ بين الشاب *معراج* معلم الفرنسية وبين *"كورين"* الممرضة الفرنسية، وأيضا بين *قمرة وصافية*. تتداخل هذه المشاعر مع مشاعر الكراهية والرفض والمعاناة التي فرضها الاستعمار الفرنسي على الأهالي في منطقة عرفت بمحافظتها على نمط معين من العيش والسلوك والأعراف.لذلك نجد الكاتب يستحضر في البداية مقولة من رواية (الكيميائي) لـــ *"باولو كويلهو"*:"قل له بأن الخوف والمعاناة أكبر من المعاناة نفسها، وليس هناك قلب لم يعان وهو منشغل بمطاردة أحلامه."[40] يرمز *معراج* في هذه الرواية إلى الذات الممزقة بين النموذج الغربي الذي تمثله *"كورين"* وبين النموذج الشرقي وتمثله *صافية*. تختلف المرأة الفرنسية في هذه الرواية كونها لا تمارس أي فعل خيانة كما تصورها الروايات عادة، إنما هي مخلصة في حبها إلى أبعد حدود الإخلاص، وفية كأفضل ما يكون الوفاء.المرأة الأجنبية في هذه الرواية *"كورين"* هي نمط المرأة الفرنسية التي تحظى بالاحترام والتقدير نظرا للخدمة التي تقدمها الممرضة في المستشفى، وتعمل على راحة المرض سواء أكانوا من بني جلدتها أم من الأهالي، وهي الفئة التي ترمز للغرب الحضاري والتي تغري البطل *معراج* بجمالها وثقافتها وأيضا من خلال نزعتها الإنسانية.*معراج* يرمز إلى الشرقي الذي يميل إلى الثقافة الغربية، وما تفضيله لـــ *"كورين"* على *قمرة والصافية* وسعيه للوصول إليها والتواصل معها وتحمله العنت في ذلك إلا دليلا على انبهاره بالنموذج الغربي.منذ الصفحات الأولى تصور الرواية البعد الحضاري والإنساني لـــ(لآخر) الغربي حين حمل *معراج* إلى المستشفى –علامة تحضر (الآخر)–، وجد كل العناية حيث سارع الكل لإسعافه ومنهم *"كورين"* التي طمأنته على صحته وأن الأمر ليس خطيرا :

- "ليس بالأمر الخطير، فقط بعض الخدوش الخفيفة، ستستعيد عافيتك بسرعة". [41]
- "إني أتحسن، لا أعرف كيف أشكرك على طيبتك ولطفك".[42]

بداية الانسجام بين البطلين *معراج* و*"كورين"* كان في المستشفى من خلال الحوار الذي دار بينهما .

سألت عن الكتاب الذي كان بين يديها: "هل تريد قراءته ؟

- لا شكرا لقد قرأته، كما أني قرأت الذي يليه.

لم تستطع المرأة إخفاء انبهارها ". [43]

ثم سألته عن مهنته : "أنت معلم ؟

-نعم سيدتي، أجابها بتهكم.

تعلم اللغة الفرنسية ؟-

- فقط للصغار من الأهالي سيدتي".[44]

كإشارة بالغة الأهمية تشير كلمة "الأهالي" (Indigènes) إلى أنه إذن ينقل اللغة الفرنسية إلى أطفال الأهالي ذوي الثقافة المحلية .إن العلاقة التي تقيمها الرواية بين الشرق والغرب تبدو علاقة واعية للاختلاف ومحبة له، فحين يقول بطل الرواية للبطلة: "إني أفهمك بصدق، وإني أحس بشعور اتجاهك كوني واثقا يا *كورين* بأني سأكون بجانبك مادمت بيننا هنا بالوادي".[45]

و ترد عليه البطلة بعد برهة من الصمت :

-"إني أثق فيك كما أني أعرفك منذ مدة طويلة، ولكن يبدو لي أني أعرفك منذ زمان يا *معراج*". [46]

ولعل الرواية تذهب إلى تصوير ما تتوق إليه النزعة الإنسانية من علاقة محبة وتفاهم بين الشرق والغرب، كما لو أن هذه النزعة قائمة بالفعل، واقفة على قدميها، فالبطل *معراج* يفتح صدره للبطلة "*كورين*" لقد دعاها إلى بيته بمناسبة مرور أسبوع على ازدياد إبن أخته *مرزاقة* :

- "نعم موافقة، ستكون فرحة بالنسبة لي لأطأ بيتا عربيا، إنني أعرفكم الآن فأرى فيكم القيم الإنسانية الرفيعة".[47]

- أمي لقد جئتك "بالرومية".

- مرحبا بها.

-"*كورين*" ستتذوقين معنا من إبداع فن الطبخ الصحراوي كسكس بلحم الخروف، إنها أكلة أهل المنطقة المفضلة.

-*معراج*، أطباقكم لذيذة، إن لها طعما لم أذق مثله من قبل".[48]

وإذا كان البطل *معراج* مشدودا، إلى الغرب من خلال "*كورين*" فإن هذا الانجذاب لم يكن كليا، بحيث يبتعد عن الأصل ويذوب في الذات الأخرى، فقد حظي في أسرته بأخته *مرزاقة* وعلاقته بأمه *مطيرة* التي ترمز للجذور قوية يحمل لها في صدره كل الروابط الحميمية، وبالطريقة نفسها تأتي علاقاته الاجتماعية منذ صغره، فهو مارس

الطفولة كالآخرين، وله صلة بأصدقائه، وبأهل قريته، لا ينسى علاقات الصبا ممثلة في *قمرة*، التي تعلق بها أيضا وهي تمثل محطة الأمان التي يلجأ إليها حين يفتقد *"كورين"* ونفس الأمر بالنسبة لـــ *الصافية* التي عرفها بعد وفاة أمه *مطيرة* والتي أخلصت لأمه *مطيرة*، فكانت رمز الصفاء الروحي، كما أنه لا يدخل في طقس اجتماعي معهود إلا تواجد فيه شكل معهود ليؤكد عدم اختلافه عن محيطه وأقرانه، تقول عنه *"كورين"* :

- "إنه شيئ غريب، إنك فتى أصيل ومتحضر".[50]

في نفس الوقت يرد عليها *معراج* :

- "أجدادي كانوا أسياد هذه الربوع الواسعة، لقد عاشوا قرونا بعيدين عن العالم، لقد بنوا أصالتنا وطوروا عاداتنا، والآن نحن فخورون بماضينا وتاريخنا".[51]

لقد أفرد الكاتب حيزا كبيرا لــ*"كورين"* أكبر من الحيز الذي تحتله *قمرة والصافية*، وهو أي البطل يبذل قصارى جهده للحاق بنموذجه المفضل، بينما لا يفعل ذلك مع الفتاتين اللتين كانتا محل عشق من *معراج*، فــ*قمرة* تظهر كمجرد استرجاع، لأنها تمثل مرحلة الطفولة، بينما يكتشف بأن *الصافية* أخته من الرضاع.[52] وجد *معراج* في نموذجه المفضل الجمال، الثقافة، الحضارة، والنزعة الإنسانية، ويبدو أن الكاتب أحسن في اختيار اسمها *"كورين"(Corrine)* الذي يعني في الإغريقية الطفلة أو الفتاة العذراء."بفضل جمالها الملائكي، فإنها تلقت انتباه كل العاملين بالمستشفى، كانت رشيقة، شعرها الأشقر الذي قص بطريقة تعطي الانطباع بأنها فتى كبير إذا لم تنتبه إلى تلك النقاط المذهبة في أذنيها وإلى العقد البراق حول رقبتها البلورية. عيناها –وبفضل تأثير ضوء الشمس– يضاعف جمالها، وفي النهار تكونان إلى السواد، وبالليل تأخذان نور الغابات، هل كان ذلك بفعل ريشة "شانيل الباريسي" أثناء النهار والكحل العربي بالليل؟ غريب أن هذه العيون الجميلة التي تتغير، متحدية الريح الرمليـــــة، والشمـــس الاستوائيـــة، إنـــه جمـــال *"كوريـــن"*، كـــل جمال منطقة (Bourgogne) و(Beaujolais) ".[53]لذلك قرر *معراج* بعد أن علم بعزم *"كورين"* الاستقرار نهائيا بفرنسا بعد الاستقلال اللحاق بها هناك، خاصة وأنه لم يعد له ما يشده إلى البقاء بعد وفاة أمه *مطيرة*، وتبخر أحلامه في الزواج من *الصافية* التي اكتشف بأنها أخته من الرضاع. غير أنه بمجرد وصوله إلى هناك يتعرض *معراج* لما لم يكن يتوقعه، لإنها العنصرية البغيضة.

"يدق جرس الباب، امرأة في الأربعينات تفتح الباب بلطف ثم تغلقه فجأة:

– عربي بالباب، تصرخ في الرواق!

رجل برأس الشامبانزي يخرج مسرعا، وحينما رأى *معراجا* صاح:

– ماذا تريد؟

– معذرة سيدي للإزعاج، يجيب *معراج*، أنا غريب وأبحث عن هذا العنوان...

يأخذ الرجل الورقة، ويقرب حاجبا من حاجب:

– الآنسة *"شارو"* هل تعرفها؟

– لقد عملت عندنا مدة عشر سنوات.

يرمي الرجل الورقة في وجه *معراج* يغلق الباب دون أن يقول شيئا.

– بعض الفرنسيين لا يعرفون معنى الضيافة.

وبعد أن يحس بأنه غير مرحب به في فرنسا، يجيب *معراج* سائليه من الشرطة بعد أن فشي به بعضهم:

"أيها السادة، لا تقلقوا بخصوصي، إذا كنتم تعتقدون بأني غير مرغوب به هنا في التراب الفرنسي، فإن حقيبتي جاهزة في غرفتي بالنزل."[54]

– "إنها عشيقتك بشارع "مونصي" لا تريد رؤيتك ترتاد هذا المكان، يقاطع الرجل ذو القناع".[55]

يُرحل *معراج* إلى بلاده، فتحدث لديه تلك الصدمة استغاثة تعيده من جديد إلى سؤال: من أنا؟ أو بالأحرى من نحن؟ وهوما يدفع البطل إلى توجيه رسالة إلى كل تلك النسوة في نهاية روايته:

–أين أنت يا *قمرة* الطيبة؟

–أين أنت يا *صافية* المسكينة؟

–وأنت عزيزتي *كورين* التي غذيتني بالإيمان والأمل؟...

–آه أماه لقد رحلت باكرا.."[56]

النهاية:

العلاقة بين الأنا والآخر (بمفهومهما الحضاري) هي إحدى إشكاليات الفِكر العربي منذ القدم غير أنَّها اتخذت شكلها الحديث منذ القرن السابع عشر، ..منذ وصول البعثات التبشيرية إلى بلاد الشام حملة نابليون وانطلاق حملة الاستعمار الحديث للوطن العربي

فيما بعد.. والأدب الجزائري -بحكم الاستعمار- ساهم مثل غيره من التجليات الفكرية الأخرى في تناول العلاقة والتنظير لها.يمكن القول أن علاقة الأنا بالآخر (المرأة الفرنسية) في الرواية الجزائرية الناطقة بالفرنسية كانت ترد إما في مظهر إيجابي قائم على الانبهار بالحضارة الغربية، أو الاعتراف بتقدم الغرب ماديا وعلميا وتقنيا وثقافيا، مع الوعي بخصوصيات المجتمع الجزائري، وما يمثله من عادات وتقاليد وقيم روحية واجتماعية، وإما في مظهر سلبي قائم على التمييز العنصري، والنظرة الدونية.

والأكيد أن الرواية الجزائرية في تعاملها مع هذه العلاقة لم تشذ عن مثيلاتها في الول العربية حين اختارت أن ترمز للغرب بالأنثى والشرق بالرجل وربما لذلك صلة بسيكولوجية تتمثل في الفحولة والرغبة الشبقية والانتقام اللاشعوري الجنسي عند الإنسان العربي، وذلك تعويضا عن نقصه سياسياوحضاريا.

الهوامش:

1-عبد الله إبراهيم: الثقافية العربية والثقافات المستعارة ط1 المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1999، ص:1782 -E:\ Samuel Phillips Huntington - Wikipédia.htm-

2- فرنسيس فوكوياما: نهاية التاريخ، ترجمة يوسف جهماني، دار الحضارة الجديدة،ط1،بيروت، 1993،ص:32

3 -نعوم تشومسكي: النزعة الإنسانية العسكرية الجديدة، ترجمة أيمن حنا حداد، دار الآداب بيروت2001، ص: 12.

4- المرجع نفسه، ص:13.

5- عبود شلتاغ: الأدب والصراع الحضاري، دار المعرفة، دمشق (د ت) ص:89.

6 - مصطفى عبد الغني: قضايا الرواية العربية، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط1، 1999، ص:83.

7- إبراهيم رماني: المدينة في الشعر العربي الجزائر نموذجا، المرجع السابق، ص:141-142.

8 - المرجع نفسه، ص:143.

9 -YAHIAOUI FADHILA: *Roman et Societé Coloniale*, Alger, ENAL, p:29.

10- أحمد طالب الإبراهيمي: من تصفية الاستعمار إلى الثورة الثقافية، ترجمة حنفي بن عيسى، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ص:231 .

11- المرجع نفسه، ص:232 .

12- المرجع نفسه: ص:233.

13-PAUL SIBLOT : *Pères Spirituels et Mythes Fondateurs de l'Algerinisme*.Itineraires et contacts de cultures,volume7.Edition l'Harmathan 1987,p ,30.
14- ALBERT MEMMI :*Le Portrait du Colonisé*, Paris, Payot,1975, p ,126.
15-JACQUES BERQUE :*Le Maghreb entre deux guerres*, Editions, Seuil,1962 p, 66
16-JOHN COHEN :*Racisme et colonisation en Algerie*, in les temps modernes, novembre 1955.
17- BOUBA MOHAMEDI TABTI :*LaSocietéAlgerienne avant l'indépendance dans la littérature,* OPU,1986,p ,166-16.
18- La Terre et Le Sang, p,3.

19- يوسف نسيب: مولود فرعون، حياته وأعماله، ترجمة حنفي بن عيسى، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1991، ص:60.

20:*Lettres à ses amis*, Editions, Seuil,1969,p ,111
21--MOULOUD FERAOUN *LaTerre et Le Sang*, .Paris, Edition Seuil, 1954, réed1998 , p ,4
22- Ibidem.
23-Ibidem.
24-Ibid, p ,5.
25-Ibid, p,5-6.

26 –علي وطفة: المظاهر الاغترابية في الشخصية العربية، عالم الفكر، المجلد27، العدد الثاني، أكتوبر/ديسمبر1988، ص:247 .

27– مفدي زكريا: محاضرات وتعقيبات الملتقى السادس للتعرف على الفكر الإسلامي، الجزائر، 24 جويلية إلى 10 أوت 1972منشورات وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، مطابع البعث قسنطينة، 1972، مجلد 1، ص:112 .

30 -LaTerre et Le Sang, p, 29.
31- Ibid , p, 28.
32- Ibid, p, 34
34- *La Terre et le Sang*, p, 40.
35-*Ibid*, p, 202.
36-*Ibid*, p, 203.
37-*Ibid*, p, 234.
38- Ibid, p, 242-243
39- *LaTerre et Le Sang*, p ,245
40- ALI ABID :*LeSimoun*, El oued, imp El walid p, 11.
41- *Ibidem.*
42- *Ibid*, p ,13
43- *Le Simoun*, p ,14.
44- *Ibid*, p ,15.
45-)*Ibid*, p ,53.

46- *Ibidem.*
47-Ibid, p ,51.
48-Le Simoun, p ,56-59.
49- *Ibid,* p ,52.
50- *Ibidem.*
51-Ibid, p ,102.
52- *Le Simoun* p,46 .
53- *Ibid,*p :114.
54-Ibidem.
55- *Ibid,* p, 117.

56-عادل محلو: تمزق الذات في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية، الملتقى الوطني حول الأدب الجزائري بين خطاب الأزمة ووعي الكتابة، المركز الجامعي وادي سوف، 16، 17مارس 2009.